المـارد الأنانى

لأوسكار وايلد Oscar Wilde

ترجمة عبد القادر صالح

أوسكار وايلد من أبرز رجالات الأدب الانجليزى فى القرن التاسع عشر ، نعم فى حياته بما لم ينعم به الكثيرون من مشاهير الأدب : شهرة واسعة وحسن تقـــدير مصحوب بالحب والاعجاب . ولـكن الدهر الذى لا يستقر على حال قلب له ظهر المجن فى الشطر الأخير من حياته ، فقاسى من الهوان والفاقة ماحطم جناحيه ، وطمس عبقريته ، فمات شريداً طريداً فى باريس .

ولد أوسكار وايلد من أبوين إرلنديين فى سنة ١٨٥٤ فى دبلن حيث قضى سنى دراسته الأولى ، فورث عن أبيه الدكتور « ويليام وايلد » إفراطه فى الميل الجنسى ، وعن أمه ميلها للفن ، فقد كانت شاعرة ناثرة ، لها مكانتها .

أتم دراسته فى أوكسفورد ؛ وهنالك أعجب بالآداب اليونانية والحياة اليونانية القديمة التى أوحت اليـه مذهبه فى الأدب ، وهو : الفن للفن . وفى اكسفورد نما فيه ميله الجنسى الشاذ ، الذى كان الصخرة التى تحطم عليها مجده

اشتهر « أوسكار » منـذ أيام دراسته الأولى بطلاوة الحديث ورقة المداعبة ، يعبد الجمال ويمقت القبح ؛ لم يتحدث الى انسان إلا وود المحدث اليه أن لا يعيـد أوسكار الأحدوثة من أولها . فشهرته فى الدرجة الأولى ترتـكز على طلاوة حديثه وظرفه ، ثم على أدبه ، ولاسيما رواياته التمثيلية وقصصه البديعة .

ترجمت فى «الرسالة» قطع من كتابات هذه الشخصية العجيبة التى كانت تفتخر البيوتات الأرستقراطية فى انجلترا بزيارته لها . وهأنذا أترجم لقراء الرسالة قطعة أخرى من غرر ما كتب ، تتجلى فيها روح الكاتب بأجلى بيان . على أنى تصرفت فى ترجمة بعضها تصرفاً قليلا :

***

حديقة غناء ، مترامية الأطراف ، يكسوها العشب الأخضر الغض ، ويزيد فى جمالها ما يبـدو فوق الحشائش هنا وهنالك من الزهور الشبيهة بالنجوم . فيها اثنتا عشرة شجرة من الخوخ ، تزهر فى الربيع أزهارها البهية ، وفى الخريف تنوء بحمل ثمرها اليانع .

تلك الحديقة هى جنينة المارد التى اعتاد الصبيـة أن يلعبوا فيها بعد ظهر كل يوم إثر انتهاء وقت المدرسة . وكثر ما كان أولئك الصبية يقفون ألعابهم ليصغوا الى أعاريد الطيور العذبة التى كانت تنبعث من بين الأغصان ، ولـكم كان يخاطب بعضهم بعضاً : « ما أسعدنا هنا ! »

عاد المارد من زيارته لصـديقه عفريت « كورنول » التى استغرقت سبع سنوات تحدث فيها اليه بما طاب له من الحديث . فلما قدم الى قصره ورأى الأطفال يلعبون فى الحديقة انتهرهم قائلاً : « حديقتى ! حديقتى ! كل فرد يستطيع أن يفهم ذلك ، ولن أسمح لأحد أن يلعب فيها » . فلاذ الأطفال بأذيال الفرار .

وعلى أثر ذلك أحاط الحديقة بسور عال علق عليه لوحة أعلن فيها أن كل من يتهك حرمة حديقته بدخوله اليها يحاكم . فكان بذلك مثال المارد الأنانى .

لم يكن للصبية مكان يلعبون فيه . حاولوا أن يلعبوا فى الطريق ، ولـكنها كانت مملوءة بالحجارة القاسية والتراب ، فلم ترق لهم ؛ فصاروا يطوفون بجدران الحديقة آسفين على تلك الأيام السعيدة التى قضوها فيها .

ورد الربيع وأخذت الأزهار تشقق عن أكمامها ، والطيور تغرد على الأفنان فى طول البلاد وعرضها . ولـكن الشتاء مازال ضارباً بجرانه فوق جنينـة المارد الأنانى . فقد أنفت الطيور أن تغرد على أشجارها والأطفال بعيدون عنها ، ونسيت الأشجار أن تزهر .

نجمت زهرة من بين الأعشاب اتفاقاً ، فلما رأت الاعلان أسفت لما حل بالصبيـة فعادت أدراجها الى بطن الأرض . ولم ينعم بتلك الجنينة فى غياب الأطفال سوى الثلج والصقيع اللذين استبشرا قائلين : « هجر الربيع هذه الجنينـة وسنتمتع بها طيلة السنة . »

غطى الثلج أعشابها ببساطه الأبيض ، وصبغ الصقيع الأشجار بصبغه الفضى . وما لبثا أن دعوا « الريح الشماليـة » لتشاطرهما الاقامة فى تلك الحديقة فلبت الريح الدعوة مزملة بالفراء ، وأخذت

تزأر طيلة النهار فتقتلع الداخن وتطوح بها .

«هذه بقعة جميلة . فلندع البَرَد الى زيارتنا.» وسرعان ما لبى « البرد » الدعوة فصار يقارع سطح القصر ثلاث ساعات متتاليات يومياً ثم يجرى بعد تحطيم كثير من البلاط حول الجنينة مزبداً .

« لا أدرى لماذا تأخر قدوم الربيع . على أنى وطيد الأمل بأن الجو سيتغير . » بمثل هذا كان يتحدث المارد الى نفسه لما طال انتظاره للربيع . ولكن الربيع ظل على هجرانه وتمادى الصيف فى صده .

قدم الخريف وأينع ثمر الأشجار فى كل الجنائن المجاورة . لكن جنينة المارد ظلت خلواً من الثمر لأنانيته . ترقص خلال أشجارها الثلوج والأمطار ، وتعبث بها الريح الشمالية والصقيع .

استيقظ المارد صباح يوم على موسيقى عذبة ، خيل اليه من حسن وقعها فى نفسه ، أنها فرقة الملك تصدح مارة بقصره . ولم تكن فى الواقع سوى ألحان طائر صغير يغرد خارج نافذته ، حمله طول عهده بأغاريد الطيور فى جنينته على الاعتقاد بأنها أعذب موسيقى فى العالم .

وقفت الأمطار وسكنت الرياح الشمالية وأخذت النسائم تحمل اليه ريا عطرا خلال نافذته المفتوحة ، فتمتم قائلاً : « ها هو الربيع قد قدم . » نهض من فراشه وأطل من النافذة . فماذا رأى ؟ منظراً عجباً .

رأى الأطفال الذين قد تسللوا من ثغرة فى الجدران جلوساً على أغصان الأشجار . كل شجرة تضم بين أغصانها طفلا . فكأنها اغتبطت بمرآهم فتفتحت أزهارها ومادت أغصانها فوق رؤوسهم ، وكانت العصافير تحوم حولهم تشقشق شقشقة الفرح . وصارت الزهور تتسابق للظهور من بين الأعشاب ضاحكة . لكن الشتاء مازال ماثلاً فى أبعد نقطة من الجنينة حيث وقف طفل صغير لم يساعده قصره على تسلق أغصان الشجرة القريبة منه . فأخذ يدور حولها وهو يبكى أمر بكاء . عز على الشجرة أن تظل مغطاة بالثلج ، وأن تظل الريح تصفر نوقها فأخذت أغصانها تدنو من الطفل وأفنانها تتدلى ، ولكنه لم يستطع تسلقها لفرط قصره .

ملىء قلب المارد حناناً وهو ينظر اليه فثاب اليه رشده وأخذ يقول : « ما كان أشد انانيتى ! » الآن أدركت سبب تأخر الربيع . سأصنع ذلك الصبي الصغير على قمة الشجرة وسأهدم السور « وستصبح حديقتى ملعباً دائماً للأطفال . »

هبط الدرج ودخل الحديقة بلطف ، فلما رآه الصبية ذعروا وفروا . فعاد الشتاء الى الجنينة . غير أن الطفل الصغير لم يفر . لان عينيه كانتا مغرورقتين بالدموع فلم ير المارد عند قدومه .

أتاه المارد من خلفه وأمسك به برفق ثم وضعه فوق الشجرة فاستحالت الى أزاهير جميلة ، وتهافتت العصافير تشرد عليها ، فتح الطفل ذراعيه من شدة الفرح وطوق بهما عنق المارد ثم قبّله ، فلما رأى الأطفال الآخرون ان المارد فقد فظاظته عادوا الى الحديقة سراعاً وعاد معهم الربيع ، فهش المارد اليهم ، وخاطبهم بقوله : « هذه جنتكم أيها الأطفال الصغار » ثم أخذ بمعوله الكبير يقوض الجدار .

ظل الأطفال يلعبون مع المارد فى حديقته البديعة حتى المساء فأتوا يودعونه « ولكن أين رفيقكم الصغير الذى وضعته فوق الشجرة ؟ » . فأجابه الأطفال : « لا نعرف . لقد ذهب » « احرصوا على مجيئه غداً » . فأخبروه بأنهم لا يعرفون مسكنه وانهم لم يروه قبل ذلك اليوم ، فحزن المارد حزناً شديداً لأنه أحب ذلك الطفل الذى قبّله حباً جماً .

صار الأطفال يأتون كل يوم بعد الظهر ويلعبون مع المارد ، لكن الطفل المحبوب لم يُرَ ثانية ، كان المارد لطيفاً معهم جميعاً ولكنه مازال يحن الى صديقه الطفل الصغير ، وكثيراً ما كان يذكره قائلاً : « ما أشد شوق لرؤيته ! »

تعاقبت السنون وشاخ المارد وضعف ، فلم يقو على اللعب ، ولذا كان يجلس فى كرسيه يرقب الأطفال وهم يلعبون معجباً بهم وبجنينته :

« لدى زهور جميلة ، ولكن لا ريب فى أن هؤلاء الأطفال أجمل أنواع الزهور » أطل صباح يوم ماطر من نافذته وهو يرتدى ثيابه ، فأخذ يمرس عينيه وينظر فيطيل النظر كأنما وقعت عيناه على شىء عجيب ، ولقد كان عجيباً حقاً . رأى فى طرف من أطراف الحديقة النائية شجرة مكتظة بالزهور ، يتدلى من أغصانها الذهبية ثمرها الغض ، ورأى تحتها الطفل الذى أحبه .